

الغذاء وطقوس العبور في المجتمع الجزائري: الكسكس أنموذجا.

خيتير سعدية^{1♦}، جيلاني كوبيبي معاشو²

جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر ، saadia.kheiter@univ-mascara.dz

جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر ، m.djilanikobibi@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2025 / 09 / 11 ؛ تاريخ القبول: 2025 / 10 / 19 ؛ تاريخ النشر: 2025 / 12 / 15

الملخص باللغة العربية:

يعتبر المجتمع الجزائري فضاء خصبا بامتياز لدراسة العادات والثقافات المتعلقة بالغذاء والطعام حيث أن هذا الإطار الجغرافي بما يحمله من دلالات رمزية مشتركة بين ساكنته يزخر بمؤشرات تراثية مادية ولا مادية، تعكس التلاحم التاريخي للأفراد المنتمين إليه من جهة، وتفتح آفاقا مستقبلية تميزه عن بقية المجتمعات الكونية من جهة أخرى. ومن أبرز المؤشرات المادية المشتركة والمعبرة عن العادات الغذائية: طبق الكسكس، المعروف بتأطيره للهندسة الاجتماعية والأنثروبولوجية للطعام، وارتباط كيفية تديره بمختلف طقوس العبور والمناسبات الاجتماعية، سواء منها السعيدة أو الحزينة. حيث أنه حسب المخيال العام لا ينحصر في حدود المعطى البيولوجي وسد حاجيات الجسد من طعام فقط، وإنما يعبر عن نتاج اجتماعي وثقافي مؤطر للعديد من الوضعيات التفاعلية اليومية أو المناسباتية. انطلاقا مما سبق، تسعى هذه الورقة البحثية لتقديم قراءة سوسيو-أنثروبولوجية لطبق الكسكس، وارتباطه بطقوس العبور، وتعبيره عن ما يسمى بالعلاقة بالطعام في إطار الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة حسب تعبير كلود ليفي ستروس الشهير انطلاقا من دراسة ميدانية بمدينة وهران. الكلمات المفتاحية: الغذاء؛ الكسكس؛ طقوس العبور؛ التغير الاجتماعي.

♦ المؤلف المرسل: خيتير سعدية

Abstract:

Algerian society is considered an exceptionally fertile space for studying customs and cultures related to food and nutrition, as this geographical framework, with its symbolic connotations shared among its inhabitants, is replete with tangible and intangible heritage indicators, which reflect the historical cohesion of the individuals belonging to it on the one hand, and open future horizons to distinguish it from the rest of global societies on the one hand. Other.

One of the most prominent common physical indicators that express food habits is the couscous dish, which is known for its framing of the social and anthropological engineering of food, and the connection of how it is managed with various rites of passage and social occasions, whether happy or sad. Whereas, according to the public imagination, it is not limited to the limits of the biological given and meeting the body's needs for food only, but rather expresses a social and cultural product that frames many daily or occasional interactive situations.

Based on the above, this research paper seeks to provide a socio-anthropological reading of the couscous dish, its connection to rites of passage, and its expression of the so-called relationship with food within the framework of the transition from nature to culture, according to the famous expression of Claude Lévi-Strauss, based on a field study in the city of Oran.

Keywords: food, couscous, rites of passage, social change

مقدمة:

يرتبط الغذاء أساسا بالوجود البيولوجي والأنطولوجي للفاعلين الاجتماعيين منذ أقدم العصور، لكن أهميته لا ترتبط فقط بالحفاظ على حياة البشر في إطار المعطى البيولوجي، وإنما تتجاوز ذلك إلى كونه يعبر عن الهوية الثقافية للمجتمعات باختلاف إثنياتها، إيديولوجياتها، وواقعها اليومي المعيش. كما أن الغذاء من ناحية أخرى يعمل على التأسيس السوسبيولوجي لمجموعة من الروابط الاجتماعية التي تقارب روابط الدم والمصاهرة من حيث الأهمية في إطار ما يصطلح عليه بـ "الملح"، الذي يساهم بشكل ملحوظ في تدعيم وتجسيد وتشكيل العلاقات بين الفاعلين الاجتماعيين ومن هنا أتت مشروعية التطرق له بالبحث في إطار العلوم الإنسانية والاجتماعية، بالرغم من قلة

الدراسات المتخصصة حول الغذاء والطعام مقارنة بغيره من المواضيع التي حصلت على المركز في جلب اهتمام الباحثين، على حساب تهميش مواضيع وظواهر أخرى. وبما أن الملاحظة المتخصصة تفيد بأنه من النادر حصول الاجتماعات البشرية أيا كانت طبيعتها ومجال نشاطها بدون الطعام ومشاركة "الملح" فإنه يتأثر بفعل التغير الاجتماعي الحاصل في المجتمعات بصفة عامة، والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، كونه مرتبط بالممارسات الاجتماعية المتحولة والمتغيرة عبر الزمان والمكان، ومؤشر من المؤشرات الأساسية لقراءة التفاعلات الاجتماعية، لدرجة أنه "كثيرا ما يتردد في الأدبيات الأنثروبولوجية بأن المرور إلى ثقافة مجتمع من المجتمعات، يكون عبر المطبخ واستراتيجيات الغذاء، فمن خلال طرق إعداد الطعام وتقديمه وتديريه، يكتب تاريخ طويل من التصورات والممارسات والعلاقات، ومن ذات المطبخ نقرأ توترات المجتمع وتوازناته في الفائت والراهن." (العطري، ع. 2016: 15) حيث أن التمعن في الغذاء والطعام وكيفية الإعداد ومكونات الأطباق يمكن أن تكشف لنا عن الأزمات التي مر بها المجتمع، أو عن فترات رفاهيته الاقتصادية والاجتماعية.

ويعتبر طبق الكسكس أو الكسكسي المصطلح على تسميته محليا أيضا "الطعام" في هذا السياق من أبرز الأطباق ذات الحضور الواسع والشعبية المنتشرة في المجتمع الجزائري، من جنوبه إلى شماله، ومن شرقه إلى غربه، والذي يتم إعداده وفق خصوصيات كل منطقة، أين تتم إضافة مكونات والتخلي عن أخرى حسب المنطقة والإمكانيات الاقتصادية. ويتصف بسمة أساسية تميزه عن غيره، تتمثل في مرافقته لكل التجمعات والمناسبات التي تطبع الواقع اليومي المعيش، سواء كانت سعيدة أو حزينة، والتي من أبرزها الحضور في طقوس العبور المختلفة والمتعلقة بالانتقال عبر محطات الحياة المتعددة بالنسبة للإنسان.

انطلاقا مما سبق يمكن طرح التساؤل التالي: كيف تتمثل الفاعلات الاجتماعيات العلاقة بين الغذاء مثلا في طبق الكسكس وطقوس العبور المختلفة في ظل التغير الاجتماعي والمعطيات الراهنة التي يشهدها المجتمع الجزائري؟ وبالأخص من خلال الأخذ بعين الاعتبار أن هناك علاقة وطيدة جمعت هذا الطبق بثقافة المجتمع الجزائري عامة، والثقافة المحلية لساكنة وهران بصفة أكثر دقة وتحديدا.

1- مفاهيم الدراسة:

1.1- الغذاء:

يعتبر الغذاء "واقعة ثقافية أو هندسة اجتماعية تؤسس لمعنى انتقال الإنسان من الطبيعة إلى الثقافة، يختزن في كافة الممارسات المرتبطة به دلالات مكثفة."

(العطري، ع.2016: 9) وبهذا المنظور فإنّه يتجاوز المعطى البيولوجي ليصبح حاملا لدلالات ثقافية موجهة ومؤطرة للعديد من التفاعلات الاجتماعية المكونة للمعيش اليومي. وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى ما ذكره كلود ليفي ستروس حول وجوب التفكير بصفة جيدة في الغذاء "حتى يكون جيدا للأكل (...). فإنّ الممارسة الغذائية نفسها تتحول إلى إحدى المرجعيات الضابطة للإنسان في بعده الفردي والجماعي." (صولة، ع، 2012: 254)

كما أن الغذاء أو الطعام حسب كلود ليفي ستروس "يتجاوز البعد الغريزي أو البيولوجي المرتبط بإشباع الجوع، لأن الطعام ليس مجرد أكل" (Lévi-Strauss, 1965: 21) بل هو حامل من حوامل الثقافة البشرية كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، ويتأثر بمختلف العوامل الطارئة على المجتمعات. وسيتم التعامل في هذه الورقة البحثية مع نوع من أنواع الطعام، يعد أكثرها شهرة وانتشارا في الفضاءات المغاربية بصفة عامة، والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، المتمثل في طبق الكسكس أو "الطعام" بالتسمية المحلية، باعتباره مثالا مجسدا وحيا "للمفهوم المركب للطعام، إذ أنه يكون بنية مطبخية، بتعبير دوغلاس، بل وفوق هذا هوية غذائية ليست هي في حقيقة الأمر سوى جزء من هوية المجتمع عينها، لكنه سرعان ما ينقلب إلى مصدر من مصادر دينامية إعادة إنتاجها وأحد علاماتها، ليتداخل الأكل بالمأكل وتصبح الهوية الغذائية هي نفسها الهوية الثقافية للمجتمع أو لإحدى فئاته وجماعاته، مع فارق في الامتداد." (صولة، ع. 2012: 254-255).

2.1- طقوس العبور:

يعتبر مفهوم طقوس العبور أو المرور من المفاهيم الأساسية المتمخضة عن دراسة المحطات الأساسية التي يمر بها الإنسان من حيث كونه فاعلا اجتماعيا منتميا لجماعة بشرية معينة، لها خصوصيتها الثقافية المؤثرة على جميع مجالات المعيش اليومي. من ناحية أنثروبولوجية، يشير معجم الانتولوجيا والأنثروبولوجيا إلى ما يلي: "حسب مراحل حياة الفرد تكون هناك مراحل طقوسية تتوأكب مع مراحل حياته، فالميلاد هو المناسبة الأولى، وسن النضج يتوافق مع طقوس المسارة وكذلك الزواج، وطقوس الأب والأم، وأيضا طقوس الموت." (بونت، ب وآخرون. 2011: 302)

يمكن القول أن طقوس المرور أو العبور تعني أيضا: "الطقوس التي تجري بمناسبة العبور من حالة سابقة أو وضع سابق إلى حالة لاحقة ووضع جديد مثل تغير الوضع الاجتماعي (...)" (إلياد، م. 1988: 15) وتجدر الإشارة إلى أن أشهر مفكر اشتغل حول طقوس العبور هو فان جنيب، حيث كرس أبحاثه ودراساته بهدف معرفة وفهم كل ما يتعلق بهذه الطقوس من حيثيات وخصوصيات تميزها عن غيرها، وقد عرفها على أنها:

"الانتقال من طور سواء أكان زمانيا أو مكانيا إلى طور آخر، وكل انتقال هو عبارة عن تحول من وضعية إلى أخرى كتحول الشاب الأعزب إلى متزوج" (Missonneuve, J. 1988: 07)

وتتلخص نظرية فان جنيب لطقوس العبور في أن الفرد في المجتمع حين ينتقل من مرحلة إلى أخرى في حياته الاجتماعية، ينخرط في مجموعة من الطقوس والشعائر، تمارس بشكل فردي أحيانا وجماعي أحيانا أخرى، كما هو الحال في الولادة والختان والبلوغ (المسارة) والزواج والوفاة. وقد تتبع الباحث هذه الشعائر في عدة مجتمعات، واكتشف فيها سرا يتمثل في نظام وتسلسل يطبع هذه الطقوس بشكل دائم في معظم المجتمعات، فبين أن الانتقال من وضع لآخر يتم وفق ثلاث خطوات:

- **الخطوة الأولى:** ينفصل فيها الفرد من بيئته القديمة ومستواه الاجتماعي، وتصبح ذلك طقوس وشعائر خاصة تعرف باسم "شعائر الانفصال".

- **الخطوة الثانية:** يكون فيها الفرد في حالة محايدة، لا ينتمي أثناءها إلى أي وضع اجتماعي، ولا يعرف له مركز اجتماعي محدد، ويحظر عليه غالبا أثناء تلك الفترة الاتصال بالناس والعالم، إلا وفق ضوابط مرسومة، وتعرف الطقوس والشعائر التي تمارس في هذه الفترة بالشعائر الهامشية، نظرا لكون الفرد يعيش آنذاك على هامش الحياة الاجتماعية، في وضعية انتقالية.

- **الخطوة الثالثة:** ينتقل فيها الفرد إلى البيئة الجديدة والمستوى الاجتماعي الجديد، في وضع مختلف عن وضعه الأول، وتصبح هذه الخطوة طقوس وشعائر خاصة تعرف بشعائر الاندماج. (فخار، 2018: 6-7)

انطلاقا مما سبق، ستركز هذه الورقة البحثية على مرافقة الكسكس بطقوس العبور المتمثلة فيما يلي: الميلاد والختان، الزواج، والوفاة.

3.1- التغيير الاجتماعي:

يعرف التغيير الاجتماعي على أنه: "تحول يحدث في النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة. ولما كانت النظم في المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا فإن أي تغيير يحدث في ظاهرة لابد وأن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة." (استيتية، د، م. 2008: 19)

عرف غي روشي من ناحيته التغيير الاجتماعي على أنه: "كل تحول في البناء الاجتماعي ليلاحظ في الزمن لا يكون مؤقتا سريع الزوال لدى فئات واسعة من المجتمع ويغير مسار حياتها." (Rocher, G. 1968: 19)

سيتم التعامل مع هذا المفهوم في الورقة البحثية على أنه مجمل التغيرات والتحويلات الحادثة في المجتمع الجزائري فيما يخص ثقافة الغذاء والطعام المرتبطة بطقوس العبور والمناسبات الهامة بالنسبة للمجتمع الجزائري بصفة عامة، ومدينة وهران بصفة خاصة، والحاصلة نتيجة التغير الثقافي والاجتماعي التي يشهدها المجتمع جراء العديد من العوامل، وفي مقدمتها ما يرتبط بنشر قيم العولمة، إضافة إلى التأثير المتزايد لوسائل الإعلام والاتصال الحديثة في الواقع اليومي المعيش.

2- الإجراءات المنهجية للدراسة الميدانية:

1.2- المنهج المتبع:

يهدف تقديم مقاربة حيادية للموضوع، تم الاعتماد على المنهج الفهمي لماكس فيبر في هذه الورقة البحثية، حيث سندهم بالمنهج الفيبري أكثر من الناحية المنهجية، والذي يرتبط بالمستويات التالية: الفهم، التأويل والتفسير. وانطلاقاً من هذا، سيتم التطرق للعلاقة بين طبق الكسكس وطقوس العبور في مدينة وهران في ظل التغيرات الاجتماعية التي تشهدها المدينة باعتبارها فضاء تتداخل فيه العديد من السجلات الثقافية المحلية والكونية، وهل بقي "الطعام" أو الكسكس الطبق الرئيسي المرافق للفاعل الاجتماعي في مختلف محطات حياته الهامة؟ أم أن التغير الاجتماعي المتعلق بالأكل والغذاء قد قام بتهميشه لصالح أطباق أخرى؟

2.2- أدوات جمع المعطيات الميدانية:

فيما يخص التقنية الأساسية المستعملة في جمع المعطيات الميدانية، فقد تمثلت في المقابلة نصف الموجهة، والتي تم الاعتماد في إجرائها على دليل للمقابلة، تم تقسيمه إلى مجموعة محاور تعلقت أساساً بأبرز المحطات العبورية أو المروية متعلقة بالفاعل الاجتماعي في الفضاء المديني الوهراني، والمتمثلة فيما يلي: المحور الخاص بالبيانات الشخصية للمبحوثين، طقوس الميلاد والكسكس، طقوس الزواج والكسكس، الطقوس الجنائزية والكسكس، إضافة إلى: الأعياد الدينية والكسكس، الصدقة والكسكس.

3.2- عينة البحث:

اعتمدت هذه الورقة البحثية على دراسة ميدانية شملت مقابلات تم إجراؤها مع عشرين (20) امرأة من الفضاء المديني الوهراني، تتمثل خصائصهن السوسيو-مهنية فيما يلي:

- السن: من 30 سنة إلى 60 سنة.
- الحالة المدنية: متزوجات وأرامل، إضافة إلى كونهن جميعاً أمهات.
- المستوى التعليمي: جامعي، ثانوي، متوسط، ابتدائي.

وقد تم اختيارهن وفق المعايير غير الاحتمالية تماشيا والأهداف الفهمية التي يسعى البحث للوصول إليها، باعتقاد العينة النموذجية، لكون هؤلاء النسوة يتوفرن على مجموعة من الخصائص الأساسية المتعلقة إجمالاً بكونهن عايشن العديد من الاحتفالات الخاصة بطقوس العبور، إضافة إلى الطقوس الجنائزية مما أعطاهن فكرة اجتماعية وثقافية تمكنهن من امتلاك تمثيل أكثر وضوحاً حول علاقة الكسكس بطقوس العبور.

4.2- المجال الزمني والمكاني للدراسة:

تمت الدراسة الميدانية في شهر سبتمبر من سنة 2023، ليتم البدء في عملية التحليل والتحرير مباشرة بعد ذلك. وقد أجريت الدراسة مع مجموعة من النسوة القاطنات بالفضاء المديني الوهراني والمنتديات إليه، الساكنات بالأحياء التالية: حي ابن سينا، حي الضاية، حي الياسمين1، حي المقرري، حي السلام.

3- عرض نتائج الدراسة:

1.3- تمثيلات الفاعلات الاجتماعيات للكسكس في المعيش اليومي:

إن التطرق لمفهوم التمثيلات بالبحث يقدم العديد من الشروحات والمؤشرات للباحث بغرض معرفة جوهر الظاهرة التي هو بصدد دراستها والحديث عنها، بالأخص لما يتعلق الأمر بالمعيش أو الواقع اليومي الذي تنتظم خلاله تفاعلات وممارسات الفاعلين الاجتماعيين المختلفة، وحتى منها ما يتعلق بالغذاء والطعام. على اعتبار أن هذا المعيش ينضوي تحت إطار سوسولوجيا اليومي التي يرى بالانديي أنها "تتميز باهتمامها بالفرد وعلاقاته القريبة والاعتيادية، كما تهتم بالممارسات والتمثيلات، التي بواسطتها يدبر الفرد، ويفاوض، ويهيكل علاقته بالمجتمع والثقافة والحدث." (Balandier,G.1983: 5) كما يمكن القول أن: "الفعل الاجتماعي ذاته لا يتأطر ولا يتموضع ضمن حدود صارمة وثابتة، إنه متغير وثابت في الآن ذاته، ولهذا فهو يوجد ويفعل وينمو ويموت داخل الحياة اليومية" (Lefebvre,H.1958: 221)

تتفق جميع المبحوثات في هذا السياق على أن الكسكس شكل منذ القديم علاقة وطيدة بالمعيش اليومي للجزائريين، ورافقهم في كل أوضاعهم على مدار السنين، سواء في الأيام الأكثر اعتيادية، أو في المناسبات السعيدة منها والحزينة. كما ترى المبحوثات أن الكسكس يشكل جزءاً لا يتجزأ من الهوية الثقافية للمجتمع الوهراني بصفة خاصة، والجزائري بصفة عامة، ويتفقن على أن "الطعام الجزائري مكاش حاجة بنيّة كيفة" (لا يوجد ما يضاهي الطعم اللذيذ للكسكس الجزائري)، والذي يتم إعداده وفق طرق تحوله من الطبيعة إلى الثقافة من خلال إعطائه بعداً ثقافياً، تخرجه من كونه مجرد طبق بيولوجي إلى طبق محمّل برصيد تاريخي وثقافي له رمزية ودلالات كبيرة ومتعددة.

وبالرغم من كون الكسكس عنصرا طقوسيا بالأساس لكونه يعتبر أداة اجتماعية طقوسية مرافقة لمختلف المناسبات الاجتماعية كما تمت الإشارة إلى ذلك، إلا أنّ عددا من المبحوثات أجمعن على أنه طبق يمكن تحضيره في الأيام العادية، أو اللجوء إليه في الفترات التي تتأزم فيها ميزانية الأسرة من الناحية الاقتصادية، من خلال تحضيره في أبسط طرقه، وتقديمه مرفقا باللبن، أو ممزوجا مع الحليب الساخن بالأخص في الليالي الباردة من الشتاء. كما يمكن أن يتم إرفاقه بالسكر أو العسل، في حالة حضور ضيف غير متوقع، وعدم وجود حلويات جاهزة في المنزل.

من ناحية أخرى أكدت جميع المبحوثات أن الكسكس يرتبط ارتباطا وثيقا وشبه مقدس بيوم الجمعة، "مكاش دار في وهران ما يديروش الطعام نهار الجمعة" (لا يوجد منزل في وهران لا يتم فيه تحضير الكسكس يوم الجمعة) هو قول صرحت به كل المبحوثات المكونات لعينة الدراسة. ويتم تحضيره بالمرق واللحم ومرافقته باللبن، ويتم تناوله بعد عودة المصلين من صلاة الجمعة، كما يتم تقاسمه مع الجيران في جو يعزز العلاقات الاجتماعية بينهم، أو إخراج جزء منه للأطفال، الذين يتناولونه بكل بهجة من خلال تبادل أطراف الحديث محاكاة لجيل الراشدين المربين لهم.

يتساوى جميع الفاعلين الاجتماعيين بالفضاء الوهراني في تناول طبق الكسكس يوم الجمعة مهما اختلفت وضعياتهم الثقافية والاقتصادية، حيث ذكرت إحدى المبحوثات أنّ: "الطعام همة لو كان يندار بالماء" (للكسكس مكانة عالية حتى لو كان بالماء فقط)، لكنهم يتميزون في تقديمه ومرافقته بناء على وضعياتهم الاقتصادية، حيث هناك منهم من يعتمد على مواد غالية الثمن، ومنهم من عكس ذلك، أين يتم الاعتماد على اللحوم بمختلف أنواعها، الأسماك، الخضر، الفواكه والفواكه المجففة، اللبن، الحليب، العسل. مما تمت ملاحظته أيضا تأسف المبحوثات المتقدمات في السن عن عدم نقل كيفية إعداد الكسكس ونقله من حالته الخام إلى "طعام" جاهز للطبخ، حيث ذكرن أن إعداد الكسكس في المنزل والذي يصطلح على تسميته "الفتيل" كان يساهم بشكل فعال في نسج قيم التضامن الاجتماعي والتعاون بين النسوة، وكانت عملية "الفتيل" تتم في أجواء وظروف يسودها الفرح وتبادل الأحاديث. على عكس الواقع الراهن أين أصبحت الأسر تقتني "الطعام مفتول" (الكسكس الجاهز) من المحلات، أو طلبه من نسوة مختصات في إعدادة مقابل مبلغ مالي يتم دفعه لهن، مما أدى إلى غياب تلك اللحظات المرافقة لتجهيز الكسكس سواء للتخزين "العولة" أو المناسبات السعيدة.

2.3- الكسكس وطقوس الميلاد والختان:

يشهد المجتمع الجزائري تغيرا اجتماعيا في العديد من أنظمتها وأنساقه، بناءا على التحولات التاريخية الطارئة عليه، إضافة إلى تأثير العولمة ووسائل الإعلام والاتصال

الحديثة التي ما زجت بين المحلي والكوني العالمي، وقد مست هذه التغيرات مختلف التفاعلات، ومن بينها: الطقوس الاحتفالية الخاصة بميلاد الفاعل الاجتماعي والختان الخاص بالذكور.

تعتبر طقوس الميلاد من بين الطقوس الأساسية في حياة الإنسان، حيث تعبر عن الفرحة بقدوم المولود الجديد المنتمي للجماعة، إضافة إلى قبوله ضمنها بطريقة لائقة متعارف عليها، ولا يكاد يخلو أي مجتمع من المجتمعات البشرية من تواجد هذه الممارسات، والتي يعد الطعام جزءاً أساسياً منها. يدخل الكسكس في هذا الإطار ضمن أطباق أخرى لمنح نوع من القداسة لاستقبال الوافد الجديد، حيث يتم طبخه بالمرق واللحم والخضر والزبيب، إضافة إلى العسل وتزيينه بالحلوى والبيض، ويقسم على الجيران والأقارب يوم "التسمية" أي تسمية المولود الجديد. إضافة إلى إعداد "البركوكس" و"الطينة" والحلويات المختلفة التي تم إعدادها خصيصاً لاستقبال المولود، في إطار ما يسمى "السبوع" أو العقيقة وحلق الشعر، والذي لا يقام عادة في اليوم السابع حسب المبحوثات، وإنما يتم تأخيرها لأسبوع أو أسبوعين حتى تتماثل الأم للشفاء نسبياً.

تجدر الإشارة إلى أن تحضيرات الطعام والكسكس بصفة خاصة تمكن الفاعلين الاجتماعيين حسب المبحوثات من التعبير عن مكانتهم وتميزهم عن غيرهم، أو تمسكهم بعاداتهم، فلكل "مأدته وطعامه، ولكل آداب أكله وتديره للطعام، فالمكانة الاجتماعية تنتج وضعاً تراتبياً في المجتمع، كما تؤسس نمط عيش خاص بالمتنمين إليها، يمتد إلى المأكل والملبس والذوق وباقي الاختيارات والسلوكيات الحياتية" (العطري، ع، ر. 2016: 89)

يختص الذكور بطقس عبور آخر نابغ من المقدس ومرتبطة بالكسكس، والذي يتمثل في الختان "الطهارة"، والذي عرف بدوره تغيراً ملحوظاً عن السابق، سواء من حيث سن الذكور الخاص بالختان، أو كيفية الاحتفال به. حيث تجمع المبحوثات في هذا السياق أنه وعلى عكس ما كان معمولاً به في السابق، أصبحت طقوس الختان تمارس على المولود الذكر قبل إتمامه لأشهر من ولادته، بينما كان في وقت مضى يختن بين ثلاث وخمس سنوات، حتى لا يتم شفاؤه بسرعة أكبر، ولا يبقى ألم الختان محفوراً في ذاكرته.

ويعبر الختان عن مرحلة أساسية يمر من خلالها المولود إلى عالم الذكورة والهوية الرجالية، ومن هنا تأتي مشروعية الاحتفال بهذا الحدث المبارك دينياً وثقافياً، بإلباس الطفل لباساً خاصاً بالمناسبة، ووضع الحناء وإعداد مأدبة الأكل، وبالرغم من أن العديد من الأسر الوهرانية قد عوضت الكسكس بأطباق أخرى، إلا أنه مازال حاضراً في مرافقة هذا الطقس الديني والثقافي الذي يحمل دلالات مرتبطة أساساً بتسميته المحلية "الطهارة". يتم ذبح خروف في هذه المناسبة وإعداد الحلويات المتنوعة وفق لإمكانات

الأسرة المادية، إضافة إلى طهي الكسكس باللحم وتزيينه وتقديمه للضيوف الذي تمت استضافتهم، وتقسيمة على الجيران.

3.3- الكسكس الراعي الرسمي لطقوس الزواج:

لا تقل طقوس الزواج قيمة عن بقية طقوس العبور، حيث ينتقل فيها الفاعل الاجتماعي من وضعية اجتماعية إلى أخرى، ترتبط بنقلة نوعية في حياته الاجتماعية بصفة عامة، من خلال تقلد مجموعة من المسؤوليات المترتبة عن تأسيس أسرة جديدة. إذ أن الزواج حسب وستر مارك "عبارة عن اتحاد بين رجل وامرأة اتحادا يعترف به المجتمع عن طريق حفل خاص" (الأخرس، 1976: 174)

أجمعت المبحوثات على أن الكسكس يرافق طقوس الزواج من بدايتها، حيث يتم استقبال أهل الزوج من خلال تقديمه لهم مزينا بالعلسل والفواكه المجففة من زبيب، جوز، لوز وغيرها، إضافة إلى الحلويات والمشروبات المختلفة في الطقوس المرتبطة بالخطبة أو "الشوفة". ثم يقدم مرة أخرى في "الفاتحة" أو الزواج الديني، أين يتم العقد الديني بين الزوجين بناء على تعاليم المقدس الإسلامي، ويُحتفل به من خلال الحليب والتمر، إضافة إلى إعداد الكسكس بالمرق واللحم وإرساله للمسجد الذي تم فيه عقد القران الديني، بعد أن تقوم النسوة بتجهيزه في أجواء تملؤها الاحتفالات بالمناسبة السعيدة والزغاريد.

وبالرغم من التغير الاجتماعي الذي حصل على الممارسات الخاصة بحفل الزفاف بدءا من إقامته في قاعة الحفلات بدل البيت العائلي، وما ترتب عن ذلك من تغير وتحول على طاولة الطعام الخاصة بالوليمة، إلا أن الكسكس يبقى السيد في اليوم الموالي الذي تقام فيه آخر طقوس الزواج، والمسمى محليا "التحزام"، إذ أن العديد من العائلات والأسر مازالت محافظة عليه، على الرغم من أن الغالبية قامت بدمجه مع الطقوس المقامة في قاعة الحفلات، أين يقدم الكسكس للضيوف في إطار الممارسات الختامية التي يتم فيها "تحزام" العروس بحزام أم زوجها من طرف طفل ذكر، تعبيرا عن اندماجها الرسمي في أسرتها الجديدة وانفصالها عن أسرتها الأصلية.

تناول الكسكس يكون بصفة جماعية، مما يساهم حسب جان بيار بولان في بناء روابط غير رسمية، تفوق أحيانا الروابط التقليدية المفتوحة على العرق والدم، فالتغذية تعبر في كثير من الأحيان عن النظام الرمزي الذي يؤطر بناء الجماعة واستمراريتها. (Poulain, J, P.2005: 136)

4.3- الطقوس الجنائزية والكسكس:

تعد لحظة موت الفاعل الاجتماعي من آخر طقوس العبور الخاصة بالإنسان، أين يتم انتقاله من عالم الأحياء إلى عالم مغاير وغامض خاص بالأموات، ونظرا لارتباط هذا

العبور بجانب ميتافيزيقي مثير للخوف والرغبة لدى الإنسان، فقد تضمن منذ القدم مجموعة من الممارسات والطقوس الخاصة بمرافقة الميت إلى مثواه الأخير، وتدبير هذا الحدث المؤثر على جميع معارفه.

بما أن الموت حدث بيولوجي وأنطولوجي يتساوى فيه جميع البشر أيا كانت ثقافتهم أو مكانتهم، يبقى طبق الكسكس المرافق الدائم باستمرار للطقوس الخاصة به حسب المبحوثات، حيث أنهن أكدن على تواجده الدائم في الطقوس الجنائزية بالرغم من التغير الاجتماعي الحاصل في المجتمع. كما تجدر الإشارة إلى إجماعهن على أن من ثقافة المجتمع أن لا يتم طهي الكسكس في بيت الميت في اليومين الأولين لوفاته، نظرا لانشغال عائلته بطقوس الحداد، واستقبال الفاعلين الاجتماعيين القادمين للتعزية، بل يتكفل جيران الميت بذلك في إطار الهبة والتبادل الاجتماعي.

لهبة دلالات مادية ورمزية مرتبطة بالتعاون والتبادل الاجتماعي وفق إطار اجتماعي مشرعن ومعترف به، حيث تظهر كنتيجة لفعل اختياري، ولكن الملاحظة الدقيقة وتصريحات المبحوثات توحى بأنها عكس ذلك، ترتبط بنوع من الجبرية والإلزام اللذين يفرضان بطريقة رمزية من طرف الجماعة، إذ أن "المتلقي سيصبح مدانا للواهب حتى يمنحه هبة لا تقل قيمة، أما الرفض فيعني الخروج عن النظام الاجتماعي وفقدان الرابط مع الآخر بل أكثر من ذلك فهو اعتراف بالهزيمة وفقدان للشرف، وبالتالي فالهبة تخلق تقاربا وتباعدا بين المعطي والمتلقي في آن واحد، فهي تجمع بين السخاء والإكراه في نفس الوقت." (مجوب، ر. 2018: 203)

ومن هنا يتم تحضير الكسكس بالمرق واللحم من طرف الجيران في إطار رد الهبة والجميل، وكشكل من أشكال التضامن الاجتماعي أيضا، حيث تربط الهبة حسب مارسال موس بين "التزامات ثلاث هي: العطاء، قبول العطاء، والرد عليه بإعادة الغرض نفسه أو ما يوازيه أو ما هو أثمن منه، هذه الأفعال الثلاثة هي إلزامية وطوعية في آن واحد تنشأ من خلالها علاقة مزدوجة بين المانح والمتلقي." (مجوب، ر. 2018: 202)

أما في اليوم الثالث من الطقوس الجنائزية والذي يسمى "الفروق" فتتكفل أسرة الميت حسب إمكانياتها بالعشاء الخاص بالفروق، والذي يكون بمثابة صدقة يتم تقديمها للحضور تقربا من الله نيابة عن الشخص المتوفي، وتكون غالبا حسب المبحوثات عبارة عن كسكس بالمرق واللحم إلى جانب طبق "الرفيس الحلو" المقدم مع القهوة، إضافة إلى قراءة القرآن على روح الميت والدعاء له بالرحمة.

ما يميز طبق الكسكس الحاضر في الطقوس الجنائزية بساطته في التقديم مقارنة مع طهيه الخاص بالمناسبات السعيدة، أين يتم الاكتفاء حسب المبحوثات بالكسكس والمرق واللحم فقط، على عكس الطقوس الاحتفالية أين يكون مزينا بالعسل والكثير من

الألوان الخاصة بالخضر والفواكه المجففة والبيض، وهذا نظرا لطبيعة الحدث المؤلمة، والتي تستحضر هيبة ورهبة الموت بما يحمله من غموض، ودلالات عن انتقال الفرد من عالم الأحياء الاجتماعي بكل ما يحمله من تفاعلات مختلفة، إلى عالم الأموات المحاط بهالة من القداسة والخوف.

الخاتمة:

انطلاقا مما سبق، يمكن القول أن الغذاء ميثلا في الموضوع بطبق الكسكس معبر أساسي عن الهوية الثقافية في الفضاء الوهراني والمجتمع الجزائري بصفة عامة، وليس مجرد معطى بيولوجي، إذ ينتقل من حالته الطبيعية الخام إلى حَمَال للكثير من المعاني والدلالات الاجتماعية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل الحديث عنها، والتطرق لها بالبحث والتمحيص.

وتنأتى أهمية الكسكس من كونه يبقى بالرغم من التغير الاجتماعي في المجتمع، ومنذ حقب زمنية وتاريخية بعيدة المرافق الأول للمائدة الجزائرية كعنصر طقوسي في كل الممارسات المكونة لطقوس العبور، سواء السعيدة منها أو الحزينة المتعلقة بالجنائز والوفاة. كما يتجاوز هذه الطقوس لبقى عنصرا غذائيا هاما لكل الفئات الاجتماعية على اختلاف وضعيتها الاقتصادية، باعتباره طبقا يدخل في الواقع اليومي المعيش للجزائريين سواء في الأيام العادية، أو في يوم الجمعة بما يحمله من دلالات دينية مرتبطة بالمقدس

المراجع:

- استيتية، دلال ملحق (2008) التغير الاجتماعي والثقافي، ط2، الأردن: دار وائل للنشر والتوزيع.
- الأخرس، محمد صلوح (1976) تركيب العائلة ووظائفها، ط1، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- العطري، عبد الرحيم (2016) قرابة الملح: الهندسة الاجتماعية للطعام، ط1، الدار البيضاء: شركة المدارس للنشر والتوزيع.
- بونت، بيار وآخرون (2011) معجم الإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، ت: مصباح الصمد، ط2، بيروت: دار مجد.
- صولة، عماد (2012) "هوية الطعام وطعام الهوية"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 2: جوان، ص.ص: 253-282.
- فخار، إبراهيم (2018) "الطقوس وطقوس العبور: نحو تأسيس سوسيولوجي مفاهيمي"، مجلة إسهامات للبحوث والدراسات، المجلد 3، العدد 1، ص.ص: 1-12.
- مجوب، رزيقة (2018) "الاقترابات النظرية للرأسمال الاجتماعي عند مارسال موس، مالك بن نبي، بيار بورديو، جيمس كولمان، روبيرت بوتنام"، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 9، العدد 1، ص.ص: 200-213.

- Balandier, Georges (1983) *Essai d'identification du quotidien*, Les cahiers de Sociologie, Paris : PUF.

- Lefebvre, Henri (1958) **Critique de la vie quotidienne**, Paris : Grasset l'Arche.
- Lévi- Strauss, Claude (1965) **Le triangle culinaire**, Paris : L'ARC.
- Maisonneuve (1988) **Les rituels**, 1ere ED, Paris : PUF.
- Poulain, Jean-Pierre (2005) **Sociologie de l'alimentation**, Paris : Edition Quadrige.
- Rocher, Guy (1968) **Le changement social**, Paris : Ed HMH.